أحمد بيضون
لا نعيش في عصر واحد ولا في وسط واحد
نشأنا في مواجهة مراجعنا الطائفية لا في حضنها ولا على ركبها

مقابلة مع السفير – 23/07/2004

؟ هل ما زلت ماركسياً، وبأي معنى؟

أحمد بيضون: في الحقيقة، السؤال ليس شاغلاً يومياً لبالي، يحصل أن أفكر في هذا الموضوع وهذا في اوقات متباعدة جداً. أطرح السؤال على نفسي عندما يطرح آخرون السؤال على أنفسهم، ولكن بصورة عامة عندما أريد تكوين رأي أو اتخاذ موقف من أي قضية، لا احس بأني أحتاج إلى مرجعية محددة باسم معيّن إلى هذه الدرجة. كأن اقول إني في صياغة هذا الرأي أو هذا الموقف اصدر عن ماركسية ما، مهما يكن مرجعها الاسمي او الشخصي. عادة لا أعتمد هذه المرجعية ولا غيرها، بل افضل أن أشتغل بمسائل محددة، وأفضل أن أعطي آراء في مشكلات مطروحة لها طابع موضعي، مثلا: عربي أو لبناني، من دون ان اربط هذه الآراء بانتماء نظري أو ان أعتني أيضاً ببلورة اتجاه نظري خاص بي وإعطائه حدودا ورسما واضحا واسما وما الى ذلك. من زمن طويل لم أعد أفعل ذلك. أعرف أنه، في صورة من الصور، لا تزال ثمة علاقة لي بالماركسية. وليس من شواغلي على ما سبق أن احدد بدقة ما هي. اعرف أيضاً انه ما تزال لي علاقة بمرشدين فكريين استهديت بأعمالهم في مراحل سابقة، اصبحت قديمة الان. من فوكو الى سارتر الى آخرين... اعرف ان هذه العلاقة لا تزال قائمة، لكن ايضاً لم احاول أن أحدد ما هي قضيتي اليوم مع هؤلاء الاشخاص وهذه التيارات. ومع ان الماركسية اكثر أهمية وأكثر حضوراً، لكنها لا تخرج عن هذه القاعدة. اذا جاز أن يأتي الامر عفو الخاطر، وبناءً على التأمل المتقطع (والذي هو ناقص دائماً) في هذا النوع من الأسئلة، أستطيع أن أجد لك جواباً، أقول ان اول ما ألاحظه (وهذه ليست ملاحظة مني وإنما هي شائعة وأجدها صحيحة) أن كل الناس اليوم ماركسيون، بمعنى من المعاني. فكأن الماركسية، حيث ماتت، مات معها الحرج من الإقامة فيها. هذا يشبه أن نكون عدواً للدولة ثم تصير الدولة عروس شعرك عند انهيارها في حرب أهلية... إذا اردت اليوم أن تفسر الحركة العارمة والهائلة الاتساع التي اسمها العولمة بظواهرها المختلفة تجد أن ترسيمة التفكير البسيطة للماركسية، نظرية الماركسية في الرأسمالية والمسلك الرأسمالي، هي أول ما يقدم نفسه. وعلى وجه العموم ومن دون الدخول في التفاصيل، فإن الماركسية هي أصح ما يمكن استخدامه لفهم ما يحصل تحت أنظارنا في هذا العالم الذي ننعته بالواسع (وهو، في الحقيقة، لم يعد واسعاً). هذا في ما يتعلق بالترسيمة التفسيرية للأمور أي إذا اراد

المرء فهم ما يحصل. في الترسيمة المسلكية أو صياغة المواقف لا أطر الفهم ولا الآراء تحديداً، بل ما يتعلق بالمسلك العملي من الأمور او ما يمكن أن توصي به كمسك عملي، تبدو الأمور أعقد مما هي عليه على صعيد النظر والفهم. فها هنا تدخل مسألة القيم. القيم، على نحو ما، لا تزال هي نفسها. إذا حاولنا النظر الى الامور على المستوى الأعم، لا تزال القيم التي كانت قيمنا حين كنا لا نزال ماركسيين بالاسم والتنظيم والعمل اليومي وما الى ذلك، هي ذاتها. ولكن حين تدخل في مجالات محددة، تجد أن القيم اختلفت. فمثلاً نحن كنا نزّاعين حين ننظر الى اوضاع التعليم كماركسيين إلى رسم ملامح معينة لوضع ينجح فيه كل التلاميذ تقريبا، ويتعلم فيه التلاميذ من أول مراحل التعليم الى آخر مراحله. كنا نعتبر كل حالات التوقف في مسيرة المتعلم، سواء أكانت نبذاً أو تصفية أم شيئاً آخر، وكل الحدود التي توضع امام الفئات الاجتماعية المختلفة، وهي تحاول أن تأخذ نصيبا مكافئا لنصيب غيرها من التعليم... كنا نرى إلى ذلك بإطلاق، من دون نظر في الحالات، على أنه من ظواهر الاستغلال بمعناه العام، ومن ظواهر القهر الاجتماعي، وأنه أمر يجب ان يوضع له حد. وكنا نتصور نوعاً من الانقلاب الجذري على الاوضاع يرسي منطقا جديدا في هذا المجال.

اليوم، بمعنى ما، أمسيت أكثر واقعية. فتراني آخذ بعين الاعتبار وجود الظروف التي تجعل الناس غير متساوين في إمكانيات التحصيل، ومستعداً للنظر في معالجة على مدى أطول وعلى نحو أكثر هدوءاً. فلا أفترض أن هذا الامر يمكن تغييره بعملية انقلابية عنيفة أو بصيغة ثورية. هذا مجرد مثل. على الصعيد الأعم الذي ذكرته قبلاً، لا تزال القيم هي نفسها بمعنى أن هناك شيئا يتعلق بالإنصاف وبحقوق البشر. مؤكد أني لا ازال متعلقاً بماركسيين يقدمون نموذجا معينا للالتزام بهذه القيم. ولكن يستطيع الماركسي اليوم أن يعبر عن هذا التعلق خارج اطار الماركسية على أساس أن له منابع ومراجع تتجاوز اطار الماركسية البحت. الماركسية أراها منتمية في اساسها لهذا التطلب ولهذه الرغبة بالرغم من أن بعض نزعاتها واتجاهاتها ترفض هذا القول. هناك ماركسية تقول بأن الماركسية هي فلسفة التغيير الذي سيحدث، وهو لن يحدث لأننا طيبون وعندنا قيم سامية، بل لأن التغيير هو حركة التاريخ. وبالتالي فإن القيم لا دور لها في تقديمه وتأخيره الا بمقدار تضمنها في حركة موضوعية. هذه الماركسية ترفض طرح الموضوع التاريخي على صعيد القيم. أنا اليوم لا ارفض هذا الشيء ابداً. حين كنت ماركسياً لم أكن أعتبر أن حركة التاريخ هي نوع من آلة تولد العدل الاجتماعي والمساواة المفترضة بين البشر من تلقاء نفسها وعبر العمليات التي كانت الماركسية تدّعي أنها قادرة على توقعها أو حضنها تاريخيا عبر تطور الموازين الطبقية والثورة وما الى ذلك.

بلشفي وماركسي

كنت اتكلم عن هذه الماركسية التي ليست حرفية ولا حزبية ولا حتى محددة، وتلك الماركسية التي تكون أساساً في منشأ الثقافات. انطلاقاً من هذا هل ترى أن الماركسية كفضاء، كجو، أحدثت شيئاً في الثقافة في لبنان؟ هل يمكن أن نتكلم عن ثقافة منشأها ماركسي؟ هل نستطيع أن نعتبر أن هذه الثقافة تتميز على نحو ما عن ثقافة ذات مناشئ أخرى؟

أحمد بيضون: هناك جوانب في الحياة الاجتماعية والسياسية اللبنانية وغير اللبنانية في أمكنة كثيرة جداً من العالم، منشأها بلشفي لا ماركسي. هذه قطعت معها وفي الحقيقة عندي نفور شديد منها ربما يصل الى مغالاة غير عملية، الى مغالاة سمّها اذا أردت مثالية بمعنى أنها مغالاة بدون أمل. وهي تلك التي تتعلق خصوصاً بافتراض حق لنواة متكتلة في أن تسيطر على جماعة وتأخذها الى محل تفترض أنه المحل الذي يجب أن تذهب إليه هذه الجماعة. وقد عاينا، قبل الحرب اللبنانية وخلالها وبعدها، أي تنوع في الجماعات التي تمارس ذلك هو قائم عندنا، وأنه في كل الحالات، ينتهي الناس المقودون الى سلبية محزنة. فيفقدون أي معنى للجماعية في تسيير شؤون المجتمع وشؤون الدولة. بمعنى أن سطوة التكتل تفقد المواطنين ادوارهم. لاحظنا هذا الامر على الصغير والكبير في نطاق الطائفة ونطاق البلد. رأينا كيف تكثف مجموعة ما إمكانات وقوة معينة وتستطيع انطلاقاً من تكتلها أن تستتبع جماعة كبيرة أو صغيرة يكون هذا في البداية موضوع رفض مكتوم واعتراض أو يعبّر عنه ربع تعبير أو نصف تعبير... ولكن تدريجياً يمكن أن ينتهي الامر وقد انتهى فعلا وامام اعيننا في حالات كثيرة، إلى نوع من الرق الإرادي الذي سار فيه الناس وراء تلك النواة المنظمة من دون اي رغبة في التبصر، ناهيك بالاعتراض والنقد. هذا نوع من الماركسية التي يجوز تعميمها على قوى ومذاهب وتيارات متنوعة ومتناقضة جداً. شخصياً، أركز في وجه هذه الأوضاع تعريفي لاستقلالي الذاتي، ولإمكانية أن أحظى بالفرصة للتفكير على نحو دعني أسمّه ‹‹نزيهاً›› وللتعبير عن موقف ليس مستنسخاً من مكان ما. كل فهمي لاستقلالَي الذاتي أصوغه لمواجهة هذه الأوضاع التي أعاينها، يلوح وراءها نموذج ماركسي او بلشفي. هذا المجال الشخصي، المتعلق بفهم الظواهر وتفسيرها لا يطابق المجال المتعلق بقيم السلوك الفردي والجماعي... السلوك حيال المسائل التي تُطرح على مجتمع أو التي تُطرح في العلاقات الإقليمية أو الدولية وما إلى ذلك.

؟ لو فكر احد في فترة ما في الوسط من المثقفين الذي ننتمي اليه، بدا أن مصطلحي اليمين واليسار غابا تقريباً عن الذهن، هل ما زال الامر هكذا أم انه ينشأ عن هذين المصطلحين تدريجاً معانٍ أخرى ووجود ما؟

أحمد بيضون: هذا الأمر يتعلق بأوضاع الطبقات والعلاقات الطبقية. مرت في لبنان بعد الحرب حالة انخساف لهذه المواجهة، كان من ركائزها او من قواعدها قدرة

استثنائية تركتها الحرب للجهات الحاكمة على توزيع المنافع وشراء الولاء وإظهار حالة النشاط، كأنها مرشحة للاستمرار في البلد، على الصعيد الاقتصادي خصوصاً، عاينّا حركة نهوض قياسا الى ما كانت عليه الامور في السنوات الاخيرة من الحرب التي كانت سنوات تأزم وفقر وهجرة كثيفة وما الى ذلك. بعد نهاية الحرب مرت ست سنوات او سبع بدا فيها أن هناك حالة إبلال يمر فيها البلد وأنها مفتوحة على افق، كان حينها الأفق الذي فتحته حركة التسوية السلمية في المنطقة. ما بدأ سنة 96 (على الأرجح) واستمر لغاية الآن يفترض مبدئياً أن يعزز من حظوظ إعادة الفرز، هو أولاً أن هناك فئات واسعة جداً في البلد دفعت أكلافاً لعملية رش الرشى والمنافع على الناس: دفعت أكلافاً باهظة في مستوى معيشتها إمكاناتها وآمالها المتعلقة بالجيل الجديد... الخ. الحركة التي بدا أنها صاعدة في النصف الأول من التسعينيات انحسرت تدريجاً وانتهت الآن إلى حالة تعثر وجمود وإلى آفاق لتأزم كبير وحتى لانهيار ليس واضحاً حتى الآن كيف سيتم تجنبه. فإذا لم تُرسم سياسات واضحة ولم تُتخذ إجراءات بعينها... وهذه تتطلب طواقم تحظى بتبن سياسي كاف ومناسب... فإن البلد مقبل بالتأكيد على انهيار رهيب. والعواقب السياسية الوطنية لهذا الانهيار يستطيع المرء أن يفترض أنها ستكون رهيبة أيضاً. ولكن لا يستطيع أن يتكهن بماهية هذه العواقب تماماً. قد يعطي هذا معنى جديداً للتفريق بين يمين ويسار على أساس خط طبقي كما قلت في البدء يزداد رسمه وضوحاً في البلد. لم يعد الذين فوق قادرين على رشوة الذين تحت، وعلى كتم الثمن الذي رتبته السياسات العامة على الذين تحت. عليه فإن بروز حركة يمكن تسميتها يسارية أمر وارد. ولكن دعنا نضع حدوداً لذلك. تبدو هناك شعارات لا غبار عليها تتعلق بالسياسات الاجتماعية وإدارة الشؤون العامة بآلة غير آلة الفساد... شعارات، تتعلق بإعطاء أفضلية في سياسات الدولة لنمو تنعكس آثاره إيجابياً على الطبقات الضعيفة شعارات تتعلق إجمالا بما يسمى ‹‹السياسات›› وهي كلمة تستعمل اليوم على نطاق واسع. والخلاف بين الكتل السياسية يدور عليها غالباً وهي ترجمة لكلمة انكليزية ليست موجودة الا باللغة الانكليزية وهي اpoliciesب وليس لها مقابل عربي إلا ‹‹سياسات›› وهي كلمة مشتركة بينها وبين السياسة الاخرى التي هي بالمعنى العادي تدبير علاقات السلطة في ما بين الاطراف الاجتماعية وإنتاج التمثيل السياسي وما الى ذلك. هذا بينما المقصود ب‹‹السياسات›› قضايا وقطاعات تجري إدارتها بتوجيه معيّن يفضي الى نتائج محددة وتستفيد منها جماعات لها ايضا صفة اجتماعية معروفة ومقصودة. بهذا المعنى، تلوح المواجهة بين يمين ويسار كما يمكن أن يتخيلها المرء على أنها مواجهة بين سياسات. من الصعب أن تتخيل المواجهة على شيء أبعد. على شيء يتناول أسس النظام الاجتماعي السياسي، على شيء يجعلنا نرجع الى نماذج المرحلة الماضية ونتناول الطبيعة الرأسمالية لهذا النظام. لن يدور الخلاف حول الطبيعة الرأسمالية للنظام وانتماء هذا النظام الى شبكة انظمة إقليمية قائمة واتصاله العضوي بالمؤسسات الراسمالية العالمية وبقواها بأشكال متنوعة متفاوتة بحسب الكتل. لن يكون هذا مدار الخلاف. سيكون مدار الخلاف أكثر محلية

ويتعلق بالضمانات الاجتماعية، بالصحة، بالتعليم، بالبيئة ربما، بمجمل هذه القضايا التي عولجت في الكتاب الذي صدر أخيراً والذي شاركت فيه تحت اسم <<خيارات للبنان>>... وبقضايا أخرى أيضاً لأن هذا الكتاب لم يغطّ كل القضايا المطروحة بطبيعة الحال.
على الصعيد السياسي، المواجهة بين اليمين واليسار قد تتناول العلاقات اللبنانية السورية مثلاً، قد تتناول الانتخابات وقانون الانتخابات، وقد تتناول الأحزاب والجمعيات والسياسة الرسمية حيال تكوين التنظيمات السياسية والجمعيات الاجتماعية، ومعها مسألة الحريات بصورة عامة. هي قد تتناول مواقف الدولة من الإعلام كما برز في أزمات مختلفة على مدى السنوات الماضية، ومن حرية التعبير عموماً وكذلك حرية التأليف والنشر... الخ. هذه هي الدائرة ومجموع المسائل التي يمكن افتراض أن اليسار بظروف المرحلة الحالية ومفاهيمها، اذا ما أتيح له حظ أن يتبلور ويتخذ شكلاً، فسيكون عليه أن يواجه في شأنها الطواقم الرسمية الموجودة في الحكم اليوم والقوى التابعة لها أو الممالئة لها، وأيضاً بعض المعارضات الموجودة على أساس منطلقات أخرى طائفية أو ما شاكل... في مواجهة الحكم الحالي. والظاهر أن ذلك تظهر بوادره عند المثقفين بالمعنى الواسع، أي المثقفين من ذوي المهن ومن الفنيين ومعهم المثقفون بالمعنى الشائع أي الذين يكتبون او ينتجون أعمالاً فنية وما إلى ذلك. في هذا الوسط، وفي طليعته الصحافيون واساتذة الجامعات وبعض السياسيين الذين على الحد بين السياسة والثقافة رغبة واضحة في تكوين يسار ضمن هذه الحدود التي حاولنا تعريفها. لكن الى اي حد ستجد هذه الرغبة صدى خارج هذا النطاق؟ ليس عندي أي معطيات لأغامر بالاجابة عن هذا السؤال، بل ينبغي أن ننتظر ونرى إذا كان <<الاخوان>> سيكملون سعيهم. حتى الآن سجلنا ثلاث مبادرات او اربعا في زمن قصير، يبدو انها تصب في هذا التوجه. ابرزها <<إعلان بيروت>>، ،بيان <<اليسار الديموقراطي>>، وربما صحّ أيضاً ان ننسب الكتاب الذي أصدرناه الى هذا الجو وإن كان كتاباً لا يحاول أن يجمع أحداً: لا تواقيع ولا بشراً. فقد نزل إلى السوق في محاولة لإثارة نقاش ليس أكثر.

الرجعيون الجدد

؟ إذا تكلمنا عن المثقفين واستطراداً من اليسار والماركسية، هل نجد بين المثقفين اللبنانيين انشقاقاً شبيهاً بما يسميه الفرنسيون <<الرجعيين الجدد>>؟

أحمد بيضون: أعتقد أن هذا الشيء موجود منذ الحرب بين المثقفين اللبنانيين، وربما من عشيتها وقبلها. هناك حالات طوائفية استشرت، ووجدت مناسباتها ومسائلها. تارة كان المستهدف هو الفلسطيني، وتارة السوري، وتارة المختلف طائفياً. هناك مثقفون بالمعنى الضيق والمحدد للكلمة ومنهم شعراء كبار جداً كما تعرف ولغوا في هذه

المجاري. في الوقت الحاضر لا تزال هذه الوضعية موجودة ربما عند مثقفين من الجيل الناشئ وينتمون الى فئة أكثر ثانوية ضمن الوسط الثقافي. نجدهم متعلقين بحركات أو تيارات سياسية تتخذ مواقف حدّية من بعض المسائل، تشعر فيها برائحة الدم والرغبة في الإبادة. ربما يجب أن نضيف ان الوسط اللبناني الفكري والقيمي يزكي احتمال ظهور الغلاة من هذا النوع، لأن النزعات التي تخترق هذا الوسط أهمها له طابع أولي وثابت، ظاهرياً على الأقل. ثابت بمعنى أنه قائم بين جماعات لا تتغير حدودها، سواء أكانت هذه الجماعات موجودة كلها في الداخل أم كان بعضها في الداخل والبعض الآخر في الخارج.

؟ في الفترة الاخيرة بعد الانتخابات البلدية الاخيرة وحوادث حي السلم، لم يرتفع اي صوت من المثقف الشيعي المعارض، وغياب هذا الصوت له أسباب كثيرة ولكن احد الاسباب هو حرج المثقف الشيعي المعارض من ان يكون له صوت في مسألة محصورة في طائفته... وحرص على راديكاليته الموروثة والبنيوية الى حد ما. كيف يمكن أن تجد حلاً لهذه المشكلة في وضع مثل الوضع اللبناني، حيث هناك تكتل اجتماعي كبير يُتلاعب به وفي الوقت نفسه هناك عدد من الناس منعوا أنفسهم أو هم ممنوعون على نحو ما من أن يتحركوا وأن يكون لهم رأي؟

خارج الجماعة وداخلها

أحمد بيضون: انا واحد من مجموعة أفراد أتصور انك انت أيضاً واحد منهم يشعرون بأن وجهة النظر الطائفية والتصنيف الطائفي هما تهديد لهم، وهما أمر هم مضطرون لمواجهته بصور متعددة ليس من الضرورة أن تكون دائماً صور رفض. فأحياناً قد تُدعى إلى مناسبات ويُطلب منك مشاركات بصفة طائفية ضمنية. والذين يدعونك لا يصرحون لك بها لكنك تشعر بأن ما جعل هذه المجموعة المدعوة الى القيام بعمل او لإعطاء رأي بأمر معين تتشكل على هذا النحو، إنما هو منطق طائفي. هذا المنطق هو الطاغي في البلد. وربما تكون لدعوتك علاقة بكفاءة متوسمة فيك، ولكن ايضاً لها علاقة بأنك من اصول شيعية. بالنسبة إليّ ليس عندي إطلاقاً أي رغبة مبدئية في ان أنفرد عن الجماعة الشيعية لا أريد أن أصل الى وضع ابدو فيه قاطعاً كل الأواصر مع هذه الجماعة. فهناك أواصر تتصل بالأماكن التي أعرفها وبالأشخاص الذين اعرفهم وبذكريات وبعلاقات راهنة وبرغبات وما الى ذلك. وهي تتصل أيضاً بنظرة الى جماعة من البشر هم الشيعة اللبنانيون لهم أوضاع سياسية واجتماعية وغيرها، هي محل نظر ضروري من جهتي وجهة غيري. اذن ليس بي اي رغبة في التنصل أو القطع. ولكن في الوقت نفسه عندي حذر دائم يصل أحياناً الى درجة الاستنفار من المصادرة. أي من شعور المرء بأنه أُلحق وصُنف في هذا المحل وممنوع عليه أن يتخذ ضمن هذا المحل مواقف غير متعارف عليها فيه وممنوع عليه أن يتخذ مواقف تتعدى أفق هذا المحل.

في هذه الحدود، لا أشعر بأني مقصر في تعاطي المسائل المتعلقة بالشيعة. أتعاطى هذه المسائل بسبب الغواية أحياناً ولأن هناك طلباً، ولأن هناك جاذباً، في أحيان أخرى مصدره مسائل كثيرة متنوعة. اقصّر في الوقت ذاته في كل هذه المسائل حيث اتكلم عليها ولكن قليلاً وأحياناً يظهر أني لست متابعاً، إذ أنقطع عن عدد من المسائل اشتغلت فيها سابقا. وهذا لأني أكون مشغولاً بمجال آخر. مؤكد، على كل حال، انني مقصر في كل شيء. ولكني اهتممت، على قدر استطاعتي، بأمور الشيعة، وتقصيري في هذا الموضوع هو كتقصيري في غيره. في الغالب اهتممت بقضايا الشيعة انطلاقاً من الإطار الجنوبي او ضمن الاطار الجنوبي. فأشتغل على مسائل وعلى وقائع تاريخية أو انتخابية مثلاً أو تتعلق بالمَهاجر وما الى ذلك. هناك عدد من النصوص التي أخرجتها متعددة الموضوعات تتعلق بالإطار الجنوبي أكثر منها بالإطار الشيعي العام.

؟ استطراداً، هذا الوضع من التجنب والاحتياط وحتى الغياب أحياناً، يبدو مفارقاً اذا اعتبرنا ان هؤلاء المثقفين الحذرين من اتخاذ مواقف من قضايا راهنة، أو من التورط فيها، هم منشغلون جداً بالماضي الشيعي ولبعضهم كتابات مهمة في هذا المجال. بينما يبدو الوضع مفارقاً اذا وجدنا أن هذا الاحتياط لا يبدو صفة المثقفين الناشئين في طوائف اخرى. هؤلاء يجدون أنهم قادرون بسهولة أكبر على اتخاذ مواقف من طوائفهم والتحركات الداخلية فيها وقادرون أيضاً على بناء علاقات مع المؤسسات في هذه الطائفة بما فيها أكثرها طائفية، البطرك مثلاً. مثلك لا يستطيع ذلك.

أحمد بيضون: نحن نشأنا أساساً كمثقفين في مواجهة مراجعنا الطائفية، لا في <<حضنها ولا على ركبها>>، مراجعنا الطائفية: السياسية منها بمعنى الزعامات التي كانت مسيطرة على مناطقنا، وكذلك الدينية. ليس صحيحاً أننا كلنا بقينا على حالة المواجهة هذه مع المراجع الطائفية الجديدة. فهناك أناس انضموا الى هذه المراجع انضماماً كلياً وانتظموا بجانبها بحماسة أكبر من الحماسة التي كانت تميز انتظامهم في الأطر العلمانية الماركسية أو غيرها وهي التي كانت أطرهم في المرحلة السابقة. نحن لم ننضم، لا أعرف بالتحديد لماذا. ولكن أقدر أنه في المرحلة التي كنا فيها ماركسيين أيام شبابنا وتعوُدنا الأول على ممارسة ادوارنا كمثقفين، لم نكن تابعين. كنا نعمل معاً ولكن في النتيجة كنا أسياد أمورنا أو هكذا كنا نشعر ونقدّر. لم نكن نتلقى أوامر، بعضنا من بعض. ولم نكن نتلقى أوامر من أحد. بل كنا نتفق على أشياء ولو أننا كنا نضطر أو نرغم أحياناً على الاتفاق. ولكن كنا نسلّم به لأننا كنا واضعين لأنفسنا أصولاً نحاول أن نسير وفقها. في الانقلاب الذي حدث من عشيات الحرب ثم خلال الحرب ثم بعدها، والذي بدا أنه يدفع باتجاه التوحيد الطائفي وباتجاه جمع الناس المنتمين الى الطائفة الشيعية بمن فيهم مثقفوها، في حومة ما، كانت حومة حربية خلال سنوات طويلة، شعرنا بأننا اذا سرنا في هذا التوجه فسنفقد أمراً جوهرياً ومهماً جداً هو صلب صورتنا عن أنفسنا وصلب قيمتنا بالنسبة الى أنفسنا، وهو حرية

التفكير. لم نقتنع بالتوجه الذي فرضه المثقفون الذين جاؤوا من الوسط الذي كنا في مواجهته، الوسط الديني غالباً، أو جاؤوا من احزاب وحركات سياسية كنا تجاوزناها أيضاً في مراحل سابقة وهي خصوصاً الحركات القومية والتنظيمات القومية. لم يكن لدينا سبب للانضمام لمثل هذه الموجة غير الامتثال ومجرد الإذعان لمد كان يبدو عنيفاً وقاهراً، وفي الوقت نفسه ربما كانت فيه منافع ومكانة طائفية جديدة يمكن أن يعتبر بها المرء وتوصله الى مواضع ربما كان يرغب في الوصول اليها، وهذا اذا عرف كيف يسلك السلوك المناسب.
لم نكن في هذا الوارد، ولا كنا مقتنعين بالغاية، وفوق ذلك كان الإذعان يفترض التضحية بأمر جوهري جداً بالنسبة الينا. بكل بساطة لم نكن نريد ذلك. وما زلت شخصياً، لا أجد في الطائفة أية طائفة إطاراً مناسباً للحلم بمستقبل لهذه البلاد لا تقشعر له الأبدان... هذا، على الإجمال، أسس وضعاً لفئة من المثقفين الشيعة، أو دعنا نقل من المثقفين ذوي الأصول الشيعية، وهو وضع ليس متناظراً تماماً مع وضع فئة المثقفين في الطوائف الأخرى أو المثقفين ذوي الأصول الطائفية الأخرى الذين ليس عندهم إذا جاز القول سفر التكوين نفسه. بل عندهم قصة أخرى وسيرة تكوينية أخرى. إذا نظرنا الى الموارنة مثلاً فهم شيء مختلف دائماً.

؟ بأي معنى في هذا المحل؟

أحمد بيضون: من مئة عام وحتى الآن، بقي أمرا استثنائيا أن يوجد مثقفون موارنة يقعون كلياً خارج الإطار الطائفي وخارج الالتزام بهذا أو ذاك من المراجع: إما الكنيسة وإما الزعامات السياسية، وإما جماعات ثقافية يغلب عليها الطابع الطائفي الماروني أو المسيحي، وإما أحزاب سياسية تغلب عليها ايضاً الصفة الطائفية. أنت تعرف أنه كانت هناك مشكلات انتشار عويصة لليسار في الأوساط المارونية. وفي المجال الثقافي، بقيت القاعدة نفسها سارية. فليس هناك حالة نزاع عامة بين من يمكن أن نسميهم المثقفين الحديثين الموارنة وبين التكوينات الطائفية والسياسية والثقافية في طائفتهم. حالة النزاع الواسعة هذه كانت موجودة عند الشيعة.

الهويات المتعددة

؟ لو تأملنا ذلك بشيء من الدهشة، ولكن الدهشة الايجابية، والتقدير بمثلك الخاص الذي هو هذا النوع من قدرة الشخص على ان يكون كلياً بين أقطاب تبدو لأول وهلة متنازعة، أن يكون الفرنكوفوني عروبياً باكثر ما يمكن ان يكون، وان يكون في الوقت نفسه قادراً على ان يكون اذا جاز التعبير جاهلياً وpost-moderne، ويتم هذا كله بقدر من هدوء النفس والمسالمة بين هذه الأطراف المتنازعة علماً بأن تنازع هذه الأطراف قبل الآن وبعد الآن لطالما أدى الى كوارث ولطالما كان في أساس دمارات

شاملة. هذا النموذج الذي هو بالمعنى الشخصي يثير الانتباه، هو في الوقت نفسه يبدو كأنه يحمل بذور اقتراح ابعد من شخصيته، بذوراً اذا جاز التعبير أعم من أن تكون بذور موقف أو حضور شخصي.

أحمد بيضون: ربما لا يؤاخذني أحد إذا ذكرت أمراً، ربما كنت post-moderne من الأساس، حتى قبل ان تدخل الكلمة في التداول. لا أعرف لماذا أحببت أموراً متنافرة واهتممت بأشياء متنوعة، أتصور أن ذلك بدأ من الشعر أساساً، وربما من أشياء هي على ضفاف الشعر سواء كانت القرآن أو نهج البلاغة أو خطب الجاهليين، على الأقل كما كنا نشعر بها في فتوّتنا. كانت شيئا يمشي مع الشعر في مدار واحد. لم اكن أفهم ولا اقبل، اذا حملتني بكل هذا التأثر والانفعال أبيات للمتنبي، أنه ليس لي الحق في ان أحب شعر السياب. لم يكن هذا واردا بالنسبة الي ولا حتى طرحت المشكلة على نفسي. أعتقد أن صمود الفصحى التاريخي أساس لهذا التجاور بين عصور مختلفة في ساحة واحدة ولقلة الاكتراث بالتمييز بين ما هو قبل وما هو بعد ولضعف العلاقة بين تبنيك الأعماك وبين درجة حداثتها. في الوقت نفسه، كنت حالاً مشكلة هذا الصراع الذي عمره 150 سنة وربما مئتين، بين الحداثة والتقليد، بين التراث والمعاصرة. حللته من طريق بسيطة جداً هي التسليم باستحالة الحل، أي التسليم باستحالة الانفصال وأخذ الموقف الحدي بين هذا الاتجاه وذاك. هذا في حقيقة الامر لم يمنع ان يكون خيار الحداثة بالنسبة الي خياراً متماسكاً وقائماً وأن أسير به على كل صعيد، كما لم يمنع استمرار العلاقة بالتراث ولا أحياناً الكتابة بلغة تبدو كأنها تراثية: كتابة الشعر مثلاً بأشكال لها جمال وأبهة من أزمنة غابرة. عثرت من وقت قصير على نص قديم لي لم أنشره سابقاً ويبدو أنه لم يكن منجزاً، والارجح أني شعرت بأني لم أكن قادراً على إكماله. وهو عن موسيقى الشعر، ويقوم على فكرة بسيطة هي رفض ربط الحداثة في الشعر بنسق موسيقي معين. فحداثة الشعر يمكن أن يكون لها اي نسق إيقاعي. هناك دفاع في النص عن هذه الفكرة وإيراد أمثلة. حتى أنني كتبت بضعة أبيات على غرار أبيات كتبها السياب لأبيّن كيف أن لزوم الوزن نفسه والقافية نفسها لا يمنع وجود اختلاف كلي في الموسيقى. أي إن الايقاع الذي اسميه في هذا المقال ‹‹الطبل›› ليس هو كل الأوركسترا. فمن الممكن أن يكون الايقاع هو نفسه، ولكنك تستطيع أن تكتب أبياتا تفتح على افق رحب أو أبياتاً تجعلك تشعر بأن نفسك يضيق، وأنك تكاد تختنق. مصدر ذلك اللعب بعناصر أخرى في تكوين البيت وتكوين المقطوعة. ربما كان هذا المقال رغم أنه قديم متأخراً عن الممارسة الفعلية لهذه الأشياء على مدى سنوات سبقت. لكني اعتقد أنه كان عندي دائماً جوع للتعرف على ما أسميناه في وقت من الأوقات ‹‹الحداثة›› في مصادره، وبالذات المصادر الفرنسية. هذا الجوع بقي منسجماً دائماً مع علاقة بدأت منذ مغادرتنا طفولتنا على الأقل بنصوص تراثية كوّنت لنا ذوقاً معيناً، وكنت مجبراً على أن اعمل شيئاً أظهر فيه أنا، ويظهر فيه نَفَسي ومشاعري وذوقي بكل هذه الوسائل. لذلك

وضعت ما يمكن أن أسميه عنصر الهوية على غير هذا الصعيد، وكنت مقتنعاً دائماً بأن عنصر الهوية، وحدة الشاعر مثلاً، أي كون الشاعر هو نفسه، مسألة لا علاقة لها بكون القصيدة قصيدة نثر أو قصيدة على البحر الطويل. بل يمكن أن تكون أنت نفسك في القصيدتين. وإذا سألك احد فإنك تستطيع أن تبيّن له كيف حصل ذلك وأن تحمله، ربما، على الشعور بذلك. قلت إنني قد أجيز اعتبار نفسي واحدا من جماعة ما بعد الحداثة بالفطرة. ولكن حين برزت افكار ما بعد الحداثة وصيغها فعلياً على ساحة التداول الفكري والذوقي لم أحبها! لم أحب منجزاتها في العمارة مثلاً. واحياناً أقع على نصوص أدبية أو فكرية منسوبة الى هذه التيارات فلا أشعر بأني أستطيع الدخول إليها. بل هي تردعني وتصدني بشكل من الأشكال، لا اعرف لماذا، لكن الموقف النظري والذوقي تجاه إنتاج الآخرين في هذا المجال مختلف، على ما يظهر، في دواعيه، عن تاريخ من الممارسة التي انبنت على خيارات أملتها ظروف أخرى ونشأة اخرى. صلب المسألة أنني لم أقتنع قط بأننا نعيش في عصر واحد أو في وسط واحد. الزمان مجال للتغير، طبعاً، ولكنه ليس ساحة حرب بين العصور ولا بين الأذواق. والذي يحبس هويته في مكان واحد أيضاً ويرتدي درعاً لخوفه عليها يسيء إليها كثيراً ويستهلك دمه عبثاً.

؟ سؤال أخير له علاقة بكتاب ‹‹خيارات لبنان››... في الواقع يبدو هذا الكتاب مشروع سلطة، برنامج سلطة، وهذا البرنامج لا يبدو كأنه يقترحه فريق ما بقدر ما هو برنامج يقترحه مثقفون لإيجاد سلطة وللقول إن هذه السلطة ممكنة، وإن هناك إمكانية ما للسلطة وإمكانية ما لإعادة لملمة وضع.

أحمد بيضون: الكتاب في الحقيقة أعد على مسؤولية الأفراد رغم أنه عقد لقاءان عامان احدهما وأنا لم أحضره جرى فيه نقاش توزيع الموضوعات وتحديد المطلوب، ونوع من تصميم مبدئي للمقالات والنصوص. واللقاء الثاني عقد بعد انجاز المقالات لإطلاق الكتاب. لم يكن هناك تنسيق بين الأفراد، مع ان هذا لا يمنع أن يكون الشخص الذي تولى المسؤولية المركزية عن الكتاب وهو نواف سلام، هو الذي اختار الأشخاص مع بعض التشاور. وهو يعرفهم جميعاً، وكل منهم يعرف، على الأقل، معظم الآخرين، ويتابعهم. هناك نوع من أساس لاختيار هؤلاء الاشخاص ولما قدموه. ولكن هناك ايضاً اختلافات. وقارئ الكتاب سيشعر حتماً بأن هناك أشياء متناقضة من مقال الى آخر. وهذا الأمر معترف به في تقديم الكتاب نفسه. من هذه الجهة، تكون هذه الأعمال اعمالاً فردية صدرت عن جو فيه عناصر مشتركة كثيرة. أما الكلام عن مشروع سلطة فالأكيد أنه لا أحد من المشاركين لديه أمل فعلي في أن يصل الى نوع من أنواع السلطة أياً يكن. والبعض منهم ممن لهم صلات سياسية وانتماءات سياسية ونشاط سياسي منتظم، الأرجح أن حظوظهم تراجعت نتيجة ذلك. لكن في كل الحالات نحن هنا في مجال ما اسميته في موضع سابق من هذا الحديث اpoliciesب. نحن أمام

رسم لسياسات تتعلق بأمور مختلفة. ما قاله جوزيف سماحة صحيح لجهة أن المسالة الاجتماعية لم تول اهمية مباشرة ومركزة في هذا الكتاب، وهناك ايضاً مسألة النساء التي لم تحظ بمعالجة مستقلة. وأعتقد أنه إذا فتش المرء فسيجد مسائل أخرى نحيت منها مسألة الثقافة. اشار جوزيف سماحة ايضاً الى وضع لبنان في المحيط الدولي الاقليمي الجديد إذ لا معالجة مستقلة له في الكتاب. ليس الكتاب جامعاً إذن. ولكن خذ المسائل واحدة واحدة تجد أن التوصيات قد يختلف أي اثنين منا على تفاصيل فيها وربما على نقاط مهمة فيها. لكن الواحد منا يستطيع ان يكون موالياً لنَفَسها العام. وهذه السياسات بمجموعها لديها نوع من التماسك لأن الخيارات الجزئية فيها صادرة عن خيارات عامة متقاربة. وأما درجة واقعية هذه السياسات والاقتراحات أي حظها في أن تتحول الى شيء غير نموذج منصوب بمواجهة سلطات قائمة. أما املها في أن تتحول الى شيء غير ذلك (ودعك من جدارتها الواقعية بهذا التحول) فليس أكبر من أمل إبليس بالجنة.